عذرائه ، فانه لن يرفض الموت ما دام هو قد امتلك العذراء بعفته ، رغم علمه بأنها تريد منه ما لم يخلق هو له . هكذا ، يخيل الي ، كان توفيق يمازج بين الواقع والرمز ، ويجد الخلاص فيما يفعل . طارده سلوقي السماء ، وعضعضه سلوقي الحب ، وتناوشه اخيرا سلوقي الارض . كان ربما يتلذذ بأن يكون الطريد ، والضحية . فهو لا يمل الحديث عن ماسوكيته هذه . غير ان ذلك لم يكن الا قناعا لصلابته الهائلة من الداخل ، لترفعه الواثق ، لنقائه الفكري .

واستمر في اصدار « حوار » على الشكل الذي أراده لها . وباتت رسائله الي مثلا لا تتحدث الا عن حاجات المجلة ، وتخطيطه لها ، هذا المقال ، وتلك الصورة ، وذلك الكاتب ... أفنى شخصيته في شخصية هذه الجنية النهمة التي راحت تطالب بوقته ، بعصبه كله ، بعبقريته كلها . حتى ما عاد يعيش ، لسنوات اربع ونيف ، الا لها . (ولو انه كتب عام ١٩٦٦ كتابه الوثائقي البارع « أضواء جديدة على جبران خليل جبران » ، وهو من أهم ما نشر عن جبران في اكثر من ربع قرن) غير ان المجلة لعبت معه ذلك الدور نفسه الذي لعبته كاي : متعته ، وعذبته ، واخيرا هددت بتشويهه . ولما اصدر بيانه في ايار ١٩٦٧ عن اغلاقها، وطالب الامة العربية بمن يتبرع لتمويلها ليصدرها من جديد ، فقد كان انما يفعل ما فعله في سنيه السوابق ، يوم رفع يديه وعينيه صائحا : «أعنّي. أعنّي . » وهذه المرة لم يعنه أحد . لا نعلم ان كان قد انصرف نحو المصلوب آنئذ من جديد يستصرخه . ولكننا نعلم أنه في العدد الاخير من المجلة نشر خاتمة قصائده — بعد صمته الطويل — بعنوان « أيضا وأيضا » . انها ثماني « قصائد حب » موجهة الى امراة عن عذاب نهائي مريع ، في القصيدة الاخيرة منها نرى الحبيبة تأتي جثته الصريعة الدفينة ، كجثة المسيح في القبر ، فتكسر الختم وتدحرج الصخر ، وتغسلها بالدموع ، بل لتبحث عن « موضع في يد او قدم لم يثقبه مسمار » لتغرز فيه مسمارا وأظفارا :

تتيقنين ان قطرة
من دم لم تتبق
او نسمة من حياة ،
تفقئين المقلتين
تشقفين الجثة
ينعشك النتن ،

تخرجين بالرمم
تنثرينها : فلا بعث
ولا وقاية قبر أو كفن .

اذكر انني كتبت اليه حالما قراتها ، لاحدثه عن قوتها وروعة مأساتها ، عالما بالطبع بأنها اكثر من قصائد حب ، بأنها تصور محنته ، وغضبه ، وقرفه من جديد . فكتب الي بتاريخ ١٥ أيار ١٩٦٧ : « شكرا جزيلا لرسالتك . ولكل الكلمات المنعشة المؤثرة التي قلتها فيها عن «ايضا وأيضا». والواقع انها احزنتني في الوقت ذاته : لانها جاءت « كصدمة » — صدمة ان اسمع كلمة جيدة عن اي شيء يتعلق بي ، وسط خضم من الاقوال والاعمال والمناورات الدنيئة الواطئة التي أحاصر بها من كل جانب ، ومن جانب الاصدقاء قبل الجميع . »

لقد عاودته بعنف تجربة الكركدن والعذراء : انه محاصر من كل جانب . وحتى الحبيبة لن تكتفي بصلبه ، ولا بد من « تشقيف » للجثة ايضا . المجلة ، الاصدقاء ، المحبون ، الجمهور : لقد احس انه ضحيتهم جميعا . وجاءت بعد ايام نكسة حزيران ، لتضع وقرها الساحق على قلبه ، مع الاوقار الاخرى .

* * *

السنوات الثلاث الاخيرة من حياة توفيق صايغ، التي قضى معظمها في التدريس في منفاه الجديد ، كانت فيما يخيل الي سنوات مطهر له . بل ان فترة قصيرة ، في اواخر ١٩٦٨ واوائل ١٩٦٩ ، قياسا على رسائله ، اوحت الي بانه ربما عاد اخيرا الى ضرب من الهناء اخذ يذكره لاول مرة منذ سنوات. كنت أشعر انه يحاول ان يخلص الى حياة جديدة، ورؤيا جديدة ، كلتاهما تتصل بذلك الجوهر الذي رغم كل شيء بقي صلبا نقيا في قرارة نفسه . غير انني فوجئت به في الصيف الماضي في بيروت ، وهو يجهد نفسه في اخراج ترجمته لرباعيات اليوت الاربع في كتاب أنيق ، وفي تهيئة محاضراته للعام الدراسي الجديد ، اذ وجدته قليل الكلام ، منطويا على مرارة لا حيلة له بها . كان كالمحزون الذي يرفض كل عزاء . وقبل سفره بيوم واحد قال انه ذاهب الى عمله في جامعة بيركلي دونما رضى عن سعيه مرة اخرى الى تلك الآفاق البعيدة . كان مصمما ، حال انتهاء السنة الدراسية ، على العودة الى بيروت والبقاء فيها ، مهما كلفه الامر. كان كمن يريد ان ينضو عنه ثوبا عتيقا ، والثوب